

تفسير سورة هود وهي مكية

قال الحافظ أبو يعلى^(١) حدثنا خلف بن هشام البزار حدثنا أبو الأحوص عن أبي إسحاق عن عكرمة قال: قال أبو بكر: سألت رسول الله ﷺ ما شببك؟ قال «شبيتنى هود والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت» وقال أبو عيسى الترمذي^(٢): حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدثنا معاوية بن هشام عن شيبان عن أبي إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت قال «شبيتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت» وفي رواية «هود وأخواتها» وقال الطبراني^(٣) حدثنا عبيد بن أحمد حدثنا حماد بن الحسن حدثنا سعيد بن سلام حدثنا عمر بن محمد عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «شبيتنى هود وأخواتها: الواقعة والحاقة وإذا الشمس كورت» وفي رواية «هود وأخواتها» وقد روى من حديث ابن مسعود نحوه فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في معجمه الكبير^(٤): حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا أحمد بن طارق الرائشي حدثنا عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن أبا بكر قال: يا رسول الله ما شببك؟ قال: «هود والواقعة». عمرو بن ثابت متروك وأبو إسحاق لم يدرك ابن مسعود والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِنْتُكَ أُنْكَمْتَ ءَايُنْتُمْ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُرُّنْتَهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنِ اسْتَفْغَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُعْنِقْكُمْ مَتْنًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء فى أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هانا وبالله التوفيق، وأما قوله: ﴿أُنْكَمْتَ ءَايُنْتُمْ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أى هى محكمة فى لفظها مفصلة فى معناها فهو كامل صورة ومعنى، هذا معنى ما روى عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير قوله ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أى من عند الله الحكيم فى أقواله وأحكامه خبير بعواقب الأمور ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أى نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقوله ﴿إِنِّي لَكُرُّنْتَهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أى إنى لكم نذير من العذاب إن

(١) صحيح: مسند أبي يعلى (١٠٢/١) برقم (١٠٧) فيه انقطاع بين عكرمة وأبي بكر الصديق.

(٢) صحيح: الترمذي (٣٢٩٣).

(٣) ضعيف جداً: المعجم الكبير (١٤٨/٦)، برقم (٥٨٠٤)، قال الهيثمي فى المجمع (٣٧/٧) فيه سعيد: بن سلام العطار وهو كذاب.

(٤) ضعيف جداً: المعجم الكبير (١٠٢/١٠) برقم (١٠٠٩١). قال الهيثمي فى المجمع (٣٧/٧): فيه عمر بن ثابت، وهو متروك.

خالفتموه، وبشير بالثواب إن أظتموه كما جاء في الحديث الصحيح^(١) أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال: «يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم الستم مصدقي؟» فقالوا: ما جربنا عليك كذبا قال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» وقوله: ﴿وَأِنْ أَسْتَفْتُوا رِكَزُكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُبْعَثْكُمْ مَنَّامًا حَسَنًا إِنَّ أَجَلَ شَيْءٍ وَرَوَيْتُ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك ﴿يُبْعَثْكُمْ مَنَّامًا حَسَنًا﴾ أى فى الدنيا ﴿إِنَّ أَجَلَ شَيْءٍ وَرَوَيْتُ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى فى الدار الآخرة قاله قتاد كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الآية [النحل: ٩٧].

وقد جاء فى الصحيح^(٢) أن رسول الله ﷺ قال لسعد «وانك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجزت بها حتى ما تجعل فى في امرأتك».

وقال ابن جرير^(٣): حدثنى المسيب بن شريك عن أبى بكر عن سعيد بن جبير عن ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله: ﴿وَرَوَيْتُ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ قال من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فإن عوقب بالسيئة التى كان عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات وإن لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول هلك من غلب أحاده على أعشاره، وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى وكذب رسله فإن العذاب يناله يوم معاده لا محالة ﴿إِلَّا اللَّهُ مَرَجَمَكُمُ﴾ أى معادكم يوم القيامة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى هو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمْتَنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الصُّدُورِ﴾

قال ابن عباس كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم فأنزل الله هذه الآية، رواه البخارى^(٤) من طريق ابن جريج عن محمد بن عباد بن جعفر أن ابن عباس قرأ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمْتَنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ الآية فقلت: يا أبا العباس ما «تنتونى صدورهم»؟ قال: كان الرجل يجامع امرأته فيستحى أو يتخلى فيستحى فنزلت: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمْتَنُونَ صُدُورَهُمْ﴾. وفى لفظ آخر له قال ابن عباس: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم^(٥).

قال البخارى وقال غيره عن ابن عباس ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾ يغطون رؤوسهم، ثم قال: حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال قرأ ابن عباس: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمْتَنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ

(١) البخاري (١٣٩٤)، (٤٧٧٠) ومسلم (٢٠٨) من حديث عبد الله بن عباس.

(٢) البخاري (٥٦)، (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

(٣) تفسير الطبري (١٨٢/١١) فى إسناده المسيب بن شريك، ضعيف..

(٤) البخاري برقم (٤٦٨٢).

(٥) البخاري برقم (٤٦٨٣).

يَسْتَعْشُونَ نِيَابَهُمْ». وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية ^(١): «يعنى به الشك في الله وعمل السيئات وكذا روى عن مجاهد والحسن وغيرهم أى أنهم كانوا يشنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك فأعلمهم الله تعالى أنهم حين يستغشون نياهم عند منامهم فى ظلمة الليل ﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ﴾ من القول ﴿وَمَا يَعْلَمُونَ إِيَّاهُ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ الصُّدُورِ﴾ أى يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر، وما أحسن ما قال زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة:

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلى بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد وبالجزاء وبكتابة الأعمال فى الصحف ليوم القيامة، وقال عبد الله بن شداد ^(٢): «كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ نثى عنه صدره وغطى رأسه فانزل الله ذلك، وعود الضمير إلى الله أولى لقوله: ﴿أَلَا جِنَّ يَسْتَعْشُونَ نِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ وقرأ ابن عباس: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ تَشْتُونَ صدورهم﴾ برفع الصدور على الفاعلية وهو قريب المعنى.

الجزء

١٢

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقَهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ

مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

الحزب

٢٣

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها بحريها وبريها وأنه يعلم مستقرها ومستودعها أى يعلم أين منتهى سيرها فى الأرض وأين تأوى إليه من وكرها وهو مستودعها، وقال على بن أبى طلحة وغيره عن ابن عباس ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أى حيث تأوى ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ حيث تموت، وعن مجاهد ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ فى الرحم ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فى الصلب كالتى فى الأنعام، وكذا روى عن ابن عباس والضحاك وجماعة، وذكر ابن أبى حاتم أقوال المفسرين ههنا كما ذكره عند تلك الآية فالله أعلم. وأن جميع ذلك مكتوب فى كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك كقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلْمٍ يَلْمِ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُنْمِ أَنْتَالِكُمْ مَا قَرَّلْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِنَّكُمْ بِرَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رِزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبْرٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ بِآيَاتِكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسٌ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شىء وأنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك كما قال الإمام أحمد ^(٣): «حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن جامع بن شداد عن

(٢) تفسير الطبري (١١/١٨٣).

(١) تفسير الطبري (١١/١٨٥).

(٣) صحيح: المسند (١٩٣٧٥).

صفوان بن محرز عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا بنى تميم» قالوا: قد بشرتنا، فأعطنا، قال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن قالوا: قد قبلنا. فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء» قال: فأتاني آت فقال: يا عمران انحلت ناقتك من عقالها، قال: فخرجت في إثرها فلا أدري ما كان بعدى، وهذا الحديث مخرج في صحيحى البخارى ومسلم^(١) بألفاظ كثيرة فمنها قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال: «كان الله ولم يكن شيء قبله^(٢) وفى رواية - غيره^(٣) - وفى رواية - معه - وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض .

وفى صحيح مسلم^(٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء» وقال البخارى^(٥) فى تفسير هذه الآية: حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب أخبرنا أبو الزناد عن الأهرج عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل أنفق أنفق عليك» وقال: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار» وقال: «أفرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيض ما فى يده وكان عرشه على الماء، ويده الميزان يخفض ويرفع» .

وقال الإمام أحمد: ^(٦) حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن عمه أبى رزين واسمه لقيط بن عامر بن المتفق العقيلي قال: قلت: يا رسول الله أين كان ريثا قبل أن يخلق خلقه قال: «كان فى عماء - سحاب - ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك» وقد رواه الترمذى فى التفسير وابن ماجه فى السنن^(٧) من حديث يزيد بن هارون به وقال الترمذى: هذا حديث حسن، وقال مجاهد «وَكَاَتَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» قبل أن يخلق شيئاً، وهكذا قال وهب بن منبه وضمرة وقتادة وابن جرير وغير واحد، وقال قتادة فى قوله «وَكَاَتَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» ينبشكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض، وقال الربيع بن أنس «وَكَاَتَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» فلما خلق السموات والأرض قسم ذلك الماء قسمين فجعل نصفاً تحت العرش وهو البحر المسجور .

وقال ابن عباس: إنما سُمى العرش عرشاً لارتفاعه، وقال إسماعيل بن أبى خالد سمعت سعدنا الطائى يقول: العرش ياقوته حمراء، وقال محمد بن إسحاق فى قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَأَتَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» فكان كما وصف نفسه تعالى إذ ليس إلا الماء وعليه العرش وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة الفعال لما يريد، وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة قال: سئل

(١) البخارى برقم (٣١٩٠).

تنبيه: لم يوجد هذا الحديث فى صحيح مسلم فليعلم .

(٢) البخارى (٧٤١٨)، (٣١٩٢). (٣) البخارى برقم (٣١٩١).

(٤) مسلم (٢٦٥٣) بلفظ: «كتب الله مقادير الخلائق...» .

(٥) البخارى برقم (٤٦٨٤)، ومسلم برقم (٩٩٣).

(٦) صحيح: المسند (١٥٧٥٥). (٧) صحيح: الترمذى (٣١٠٩)، وابن ماجه (١٨٢).

ابن عباس عن قول الله (١): ﴿وَكَاثَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ على أى شىء كان الماء؟ قال على متن الرياح، وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أى خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له ولم يخلق ذلك عبثاً كقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَهِنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوله ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ أى ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل أكثر عملاً، بل أحسن عملاً ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل على شريعة رسول الله ﷺ فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين وبطل حبط.

وقوله: ﴿وَلَيْتَ كُنْتُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يقول تعالى ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذى خلق السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [المنكحوت: ٦١] وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذى هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداة كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَجِدًا﴾ [القصص: ٢٨] وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أى يقولون كفراً وعناداً ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول.

وقوله: ﴿وَلَيْتَ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَهًا أَنَّهُ مَعْدُودٌ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ الآية. يقول تعالى ولئن أخرنا عنهم العذاب عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور أو وعدناهم به إلى مدة مضرورية ليقولن تكذيباً واستعجالاً، ما يحبسهم أى يؤخر هذا العذاب عنا فإن سجايهم قد ألفت التكذيب والشك فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد والأمة تستعمل فى القرآن والسنة فى معان متعددة فيراد بها الأمد كقوله فى هذه الآية ﴿إِلَهًا أَنَّهُ مَعْدُودٌ﴾.

وقوله فى يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] وتستعمل فى الإمام المقتدى به كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وتستعمل فى الملة والدين كقوله لإخباراً عن المشركين إنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وتستعمل فى الجماعة كقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلٰوةَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ جَسَدَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧] والمراد من الأمة ههنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم كما فى صحيح مسلم (٢) «والذى نفسى بيده لا

(١) صحيح موقوف: تفسير الطبري (٥/١٢).

(٢) مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة.

يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسل كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وفى الصحيح^(١) «فأقول أمتى أمتى» وتستعمل الأمة فى الفرقة والطائفة كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهُودُكَ يَلْمُونَ وَبِهِمْ يَقُولُونَ﴾ [الأمراء: ١٥٩] .

وقوله: ﴿بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ مَآثِلَهُ الْآيِلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آية آل عمران: ١١٣]

﴿وَلَيْنِ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ بِكَفُورٍ ۝ وَلَيْنِ أَدَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَنَفِجٍ فَخُورٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل وكفر وجحود لماضى الحال كأنه لم ير خيراً ولم يرج بعد ذلك فرجاً . وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أى يقول: ما بقى ينالنى بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿إِنَّهُ لَنَفِجٍ فَخُورٍ﴾ أى فرح بما فى يده بطرف فخور على غيره، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى فى الشدائد والمكاره ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى فى الرخاء والعافية ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أى بما يصيبهم من الضراء ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه فى زمن الرخاء كما جاء فى الحديث «والذى نفسى بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها»^(٢) وفى الصحيحين^(٣) «والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن» ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ آفَاتٌ قَالُوا إِنَّا مِنَ اللَّهِ لَنَقِيرٌ وَإِنَّا عَلَىٰ آفَاتِهِ لَحَافِظُونَ﴾ [المعصر: ١-٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الصَّالِحِينَ﴾ [الآيات الملعوج: ١٩-٢٢] .

﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَابِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ أَفقرُّهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم فى قوله: ﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَتَشَبَّهُ فِي الْأَنْبِيَاءِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكْتُبُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّتَشُورًا﴾ [الفرقان: ٧-٨] فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه وأرشدته إلى أن لا يضيق

(١) البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك .

(٢) البخاري (٥٦٤١)، (٥٦٤٢)، ومسلم، (٢٥٧٣)، من حديث أبي هريرة وأبي سعيد .

(٣) تقدم آية رقم ١٣ من سورة يونس .

بذلك منهم صدره ولا يهيدنه ذلك ولا يشينه عن دعائهم إلى الله عز وجل أثناء الليل وأطراف النهار كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَمَكَّرْنَا بِكَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَعْبَدْنَاكَ حَتَّىٰ آتَيْكَ الْبَقِيَّةَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]، وقال هاهنا: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقًا بِهِ سَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا﴾ أي لقولهم ذلك فإنما أنت نذير ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك فإنهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل، ثم بين تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع البشر الاتيان بمثله ولا بعشر سور مثله ولا بسورة من مثله لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات. وذاته لا يشبهها شيء تعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك وأن هذا الكلام منزل من عند الله متضمنًا علمه وأمره ونهيه ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون فقيرًا يقول من عمل صالحًا التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجدًا بالليل لا يعمله إلا لالتماس الدنيا يقول الله تعالى: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة وحبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا وهو في الآخرة من الخاسرين: وهكذا روى عن مجاهد والضحاك وغير واحد، وقال أنس بن مالك والحسن: نزلت في اليهود والنصارى^(١).

وقال مجاهد وغيره: نزلت في أهل الرياء، وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسدده جزاءه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة، وقد ورد في الحديث المرفوع نحو من هذا، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْمَالَةَ عَجَلْنَا لَهَا فِيهَا مَا شَاءَ لَنْ نُؤْتِيَهُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كَلَّا نُمِدُّ هُنَّوَالَهُ وَهُنَّوَالَهُ مِنْ عَطَاؤِ رَبِّكَ سَخَطُورًا أَنْظَرُ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨-٢١] وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

(١) تفسير الطبري (١٢/١٢).

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنِهِ مِّن رَّيْبِهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى: ﴿تَأْفِكُ وَجَهَكَ لِلَّذِينَ حَبِطًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ آيَاتُ الْقَبْرِ﴾ [الروم: ٣٠] وفي الصحيحين^(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» الحديث. وفي صحيح مسلم^(٢) عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً» وفي المسند والسنن^(٣) «كل مولود يولد على هذه الملة حتى يعرب عنه لسانه» الحديث، فالمؤمن باق على هذه الفطرة، وقوله: ﴿وَتَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي وجاءه شاهد من الله وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية والضحاك وإبراهيم النخعي والسدي وغير واحد في قوله تعالى: ﴿وَتَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: إنه جبريل عليه السلام.

وعن علي رضي الله عنه والحسن وقتادة هو محمد ﷺ وكلاهما قريب في المعنى لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة، وقيل هو علي وهو ضعيف لا يثبت له قائل والأول والثاني هو الحق، وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة والتفاصيل تؤخذ من الشريعة والفطرة تصدقها وتؤمن بها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنِهِ مِّن رَّيْبِهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وهو القرآن بلغه جبريل إلى النبي ﷺ وبلغه النبي محمد ﷺ إلى أمته، ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَىٰ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم وقُدوة يقتدون بها ورحمة من الله بهم فمن آمن بها حق الإيمان فاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى: ﴿لَا تُؤْتِكُمْ بِهِ وَمَنْ يَبْغُ﴾ [الأنعام: ١٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِيئًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾.

(١) البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨)، (٢٦٥٩).

(٢) مسلم (٢٨٦٥).

(٣) صحيح: المسند (٩٨٨١)، (١٤٣٩١)، وأبو داود (٤٧١٤)، والترمذي (٢١٣٨)، من حديث أبي هريرة.

وفى صحيح مسلم^(١) من حديث شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار» وقال أيوب السخيتانى^(٢) عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه أو قال تصديقه فى القرآن فبلغنى أن النبى ﷺ قال: «لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ولا يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى إلا دخل النار» فجعلت أقول أين مصداقه فى كتاب الله؟ قال ولما سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقاً فى القرآن حتى وجدت هذه الآية ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ قال من الملل كلها وقوله ﴿فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية، أى القرآن حق من الله لا مرية فيه ولا شك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ آيَاتِنَا لِلْكٰتِبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْمَلٰٓئِكِۦنَ﴾ [السجدة: ١-٢] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَرْجِعُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلٰكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَطْعَمَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُغْلِبُكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلٰهٌ فَلَنْتَبِعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّٰلِمِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتَوِنَ عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰفِرُونَ ﴿١٦﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم فى الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسول والأنبياء وسائر البشر والجان كما قال الإمام أحمد^(٣) حدثنا بهز وعفان قالا: أخبرنا همام حدثنا قتادة عن صفوان بن محرز قال: كنت أخذًا بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: «إن الله عز وجل يبنى المؤمن فيضع عليه كتفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم» ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَعْبَتُونَ عِوَجًا﴾ أى يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق

(١) تقدم تخريجه من قبل من حديث أبي هريرة عند مسلم، وأما حديث أبي موسى فعزاه المزني فى تحفة الأشراف (٦/ ٨٩٩٥) إلى النسائي.

(٢) صحيح: تفسير الطبري (١٢/ ١٩).

(٣) صحيح: المسند (٥٤١٣).

(٤) البخاري (٢٤٤١)، مسلم (٢٧٦٨).

الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويجنبونهم الجنة ﴿وَيَتَوَنَّبَهَا غُوبًا﴾ أى ويريدون أن يكون طريقهم غوبًا غير معتدلة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أى جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا لَهُمْ رِنَ دُونَ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أى بل كانوا تحت قهره وغلبيه وفى قبضته وسلطانه وهو قادر على الانتقام منهم فى الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخُصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ للإبراميم: [٤٢].

وفى الصحيحين ^(١) «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ولهذا قال تعالى: ﴿يَضَعُفَ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَ أَسْمَعَ وَمَا كَانُوا يَبْغِرُونَ﴾ أى يضعاف عليهم العذاب، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعًا وأبصارًا وأئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم بل كانوا صما عن سماع الحق عميًا عن اتباعه كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار كقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [المعك: ١٠] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذُنُوبُهُمْ عَنَّا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه وعلى كل نهى ارتكبهوه ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّوْا أَنفُسَهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [١] أى خسروا أنفسهم لأنهم دخلوا نارًا حامية فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين كما قال تعالى: ﴿كَلِمَاتٍ خَتَّ زَيْنَتُهُنَّ سَوِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] ﴿وَصَلَّوْا عَنْهُمْ﴾ أى ذهب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تجد عنهم شيئًا بل ضررتهم كل الضرر كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَيْرَ النَّاسِ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِبَادِيَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا يَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبَادِيَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مریم: ٨١-٨٢] وقال الخليل لقومه ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَتَلَوتُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ [المنكسبوت: ٢٥] وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَفَتِ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرتهم ودمارهم ولهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ [٢] يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة فى الدار الآخرة لأنهم استبدلوا الدرجات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم أن وعن شرب الرحيق المختوم بسُموم وحميم وظل من يحموم وعن الحور العين بطعام من غسليين وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْمَىٰ وَالْأَصْبَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأمنت قلوبهم ومهلت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات وبهذا ورثوا

(١) البخاري (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٢) ، من حديث أبي موسى الأشعري .

الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسموات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ولا ينامون ولا يتخوطون ولا يصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون، ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أى الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين السعداء فأولئك كالأعمى والأصم وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق فى الدنيا والآخرة لا يهتدى إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ يَوْمَ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وأما المؤمن ففطن ذكى ليبص بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل فيتبع الخير ويترك الشر سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة فلا يروج عليه باطل، فهل يستوى هذا وهذا؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون فتفرون بين هؤلاء وهؤلاء كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْمُرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [طاهر: ١٩-٢٤].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الِيسْرِ ﴿٢﴾ فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ اتِّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَارِنَا بَادِي الرِّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَنظُرُكُمْ كَذِبِينَ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين حجة الأصنام أنه قال لقومه ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله، ولهذا قال: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الِيسْرِ﴾ أى إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً فى الدار الآخرة ﴿فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ والملا: أهم السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أى لست بملك ولكنك بشر فكيف أوحى إليك من دوننا ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أرادنا كالباعة والحاجة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء من هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ولا فكر ولا نظر بل بمجرد ما دعوتهم أجلبوك فاتبعوك ولهذا قالوا ﴿وَمَا نَرْنَكَ اتِّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَارِنَا بَادِي الرِّأْيِ﴾ أى فى أول بادئ الرأى ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يقولون ما رأينا لكم علينا فضيلة فى خلق ولا خلق ولا رزق ولا حال لما دخلتم فى دينكم هذا ﴿بَلْ نَنظُرُكُمْ كَذِبِينَ﴾ أى فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة فى الدار الآخرة إذا صرتم إليها، هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق فى نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل بل الحق الذى لا شك فيه أن أتباع

الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوعًا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَمٍ وَإِنَّا عَلَىٰ مَا نُنذِرُكُمْ مِنَ الْقَوْمِ الْمَظْهُومِينَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ولما سأل هرقل ملك^(١) الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم.

قال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل هم أتباع الرسل، وقولهم ﴿يَا وَيَّ الرَّأْيِ﴾ ليس بمذمة ولا عيب لأن الحق إذا وضع لا يبقى للرأى ولا للفكر مجال بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاه وذكاء بل لا يفكر هاهنا إلا عبي أو غبي، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاءوا بأمر جلي واضح. وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلثم»^(٢) أي ما تردد ولا تروى لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً واضحاً فيبادر إليه وسارع. وقوله: ﴿وَمَا رَأَيْتُمْ لَكُمْ طَيْبًا مِنْ فَضْلِي﴾ هم لا يرون ذلك لأنهم عمى عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون بل هم في ريبهم يترددون في ظلمات الجهل يعمهون وهم الأفاكون الكاذبون الأقلون الأذلون وفي الآخرة هم الأخسرون.

﴿قَالَ يَتْلُو آيَاتِهِمْ إِنَّ كُنْتُ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّي وَأَلَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَصَبَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَا مُكْوَمًا ﴿٥٦﴾ وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما رده نوح على قومه في ذلك: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿فَصَبَّتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها وردعا ﴿أَنْزَلْنَا مُكْوَمًا﴾ أي نغضبكم بقولها وأنتم لها كاهون.

﴿وَيَنْقُورِ لَا اسْتَلْقَمَ عَلَيْهِ مَا لَّا إِنْ أُخْرِجَ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْمَعُونَ ﴿٥٦﴾ وَلِكَيْفَ أَرَبَكُمُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٥٧﴾ وَيَنْقُورِ مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

يقول لقومه لا أسالكم على نصحي لكم مالا: أجرة أخذها منكم إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاما ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً فانزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢] ﴿وَأَسْبَغَ فَسَقَهُ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ لَقَدْ بَدَّلْنَا بَصَنَّهُمْ يَبْغِضُونَ يُتَوَلَّوْا أَهْلَؤُلَآءَ مَكَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالْمُنَافِقِينَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٣].

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (١٦٤/٢)، لكن ثبت نحوه في البخاري (٣٦٦١)، من حديث أبي الدرداء مرفوعاً:

«إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق...»

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله له في ذلك ولا يسألهم على ذلك أجرًا بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضع فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا يقدر له على التصرف في خزائن الله ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه وليس هو بملك من الملائكة بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم الله أعلم بما في أنفسهم فإن كانوا مؤمنين باطنًا كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنَى ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا لكان ظالما قاتلا ما لا علم له به .

﴿قَالُوا يَنْشُوعُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِنَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ ﴿٦٧﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عن استعجال قوم نوح نعمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق . ﴿قَالُوا يَنْشُوعُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ أي حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك ﴿قَائِنَا بِنَا تَعَدْنَا﴾ أي من النعمة والعذاب ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ﴾ أي إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم وإنذارى إياكم ونصحي ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي إغواؤكم ودماركم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي هو مالك أزيمة الأمور المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق وله الأمر وهو المبدئ المعيد مالك الدنيا والآخرة .

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفَرَأَيْنَاهُ فَمَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَجْحَرُونَ﴾

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكد لها . ومقرر شأنها يقول تعالى لمحمد ﷺ : أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا وافتعله من عنده ﴿قُلْ إِنْ أَفَرَأَيْنَاهُ فَمَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ أي فإثم ذلك على ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَجْحَرُونَ﴾ أي ليس ذلك مفتعلا ولا مفترى لأنى أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه .

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ أَمَنَ فَلَا يَتَّبِعُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٩﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطُبِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكَلَّمَ مَرْعِيهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ ﴿٧١﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نعمة الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبرًا عنه أنه قال : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا﴾ [نوح : ٢٦] ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي

مَقْلُوبٌ قَاتِنِيرٌ» [القم: ١٠] فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْلِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ يعنى السفينة ﴿يَأْتِينَنَا﴾ أى بمرأى منا ﴿وَوَجَّحْنَا﴾ أى وتعلمينا لك ما تصنعه ﴿وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ﴾.

فقال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه ويبيسه فكان ذلك فى مائة سنة ونجرها فى مائة سنة أخرى وقيل فى أربعين سنة فالله أعلم. وذكر محمد بن إسحاق عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً وأن يطلى باطنها وظاهرها بالقار وأن يجعل لها جوجواً أزوراً يشق الماء، وقال قتادة كان طولها ثلاثمائة ذراع فى عرض خمسين وعن الحسن طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلثمائة وعنه مع ابن عباس طولها ألف ومائتا ذراع فى عرض ستمائة وقيل طولها ألفا ذراع وعرضها مائة ذراع فالله أعلم، قالوا كلهم وكان ارتفاعها فى السماء ثلاثين ذراعاً ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للإنس والعليا للطيور وكان بابها فى عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثراً غريباً من حديث على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبد الله بن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها قال فانطلق بهم حتى انتهى بهم إلى كتيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه فقال أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح. قال فضرب الكتيب بعصاه قال قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب قال له عيسى عليه السلام: أمكذا هلكت؟ قال: لا. ولكنى مت وأنا شاب ولكننى ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت، قال حدثنا عن سفينة نوح؟ قال: كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوق وقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث فلما وقع الفأر بخرز السفينة يقرضه وحبالها أوحى الله إلى نوح أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر، فقال له عيسى عليه السلام: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوق عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت.

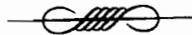
قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها فعلم أن البلاد قد غرقت قال فطوقها الخضرة التى فى عنقها ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت قال فقلنا يا رسول الله: ألا نتطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال فقال له: بعد بإذن الله فعاد تراباً، وقوله: ﴿وَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْطِيوً مَلَأَ مِنْ قَوْلِهِمْ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أى يطنزون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق ﴿قَالَ إِنْ سَخِرُوا مِنَّا إِنَّا نَسَخِّرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَّرُونَ نَسَوَفَ تَمَلَّكُونَ﴾ وعيد شديد وتهديد أكيد ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُعْزِيهِ﴾ أى يهينه فى الدنيا ﴿وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ﴾ أى دائم مستمر أبداً.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنٌ وَمَأْءَمِنٌ مَّعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٠﴾﴾

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهتان الذي لا يقلع ولا يفتر، بل هو كما قال تعالى: ﴿فَنَحْنُ أُولُو السَّلَٰمَةِ بِمَا وَكُنْتُمْ بِهِ﴾ [القمر: ١١-١٤] وأما قوله ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فعن ابن عباس التنور وجه الأرض، أى صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنانير التى هى مكان النار صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف، وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه التنور فلق الصبح وتنوير الفجر، وهو ضياؤه وإشراقه والأول أظهر وقال مجاهد والشعبى: كان هذا التنور بالكوفة، وعن ابن عباس عين بالهند، وعن قتادة عين بالجزيرة يقال لها عين الوردة وهذه أقوال غريبة فحينئذ أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه فى السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل وغيرها من النباتات اثنين ذكراً وأنثى فليل كان أول من أدخل من الطيور الدرة وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار فدخل إبليس متعلقاً بذنبه فدخل بيده وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه فجعل يقول له نوح عليه السلام: ما لك ويحك ادخل فينهض ولا يقدر فقال: ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا فى السفينة، وذكر أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه الحمى.

وقال ابن أبى حاتم ^(١) حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثنى الليث حدثنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبىه أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه: وكيف نطمئن أو نطمئن المواشى ومعنا الأسد؟ فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت فى الأرض، ثم شكوا الفأرة فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس، فخرجت الهرة منه فتخبات الفأرة منها».

وقوله ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أى واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرابته إلا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله فكان منهم ابنة يام الذى انعزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله، وقوله ﴿وَمَنْ ءَامَنٌ﴾ أى من قومك ﴿وَمَأْءَمِنٌ مَّعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أى نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفساً. وقيل كانوا عشرة، وقيل إنما كان نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافت وكنائنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام، وقيل بل امرأة نوح كانت معهم فى السفينة وهذا فيه نظر، بل الظاهر أنها هلكت لأنها كانت على دين قومها فأصابها ما أصابهم كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها، والله أعلم وأحكم.



(١) مرسل: تفسير ابن أبى حاتم (٦/١٠٨٧١).

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبَهَا ومُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ قَالَ سَتَأوى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴿١٢﴾ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبَهَا ومُرْسَهَا ﴾ أى بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها، وقرأ أبو رجاء العطاردي: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا ومُرْسِيهَا ﴾ وقال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّا نَسْتَوِي أَنْتَ وَمَنْ نَمَلَكُ عَلَى أَعْيُنِكَ فَمَلِكٌ مُقْتَدِرٌ وَمَوْلَانَا يَنْبَغِي مِنَ الْقَوْمِ الْفَٰلِغِينَ وَقُلْ رَبِّ ارْزُقْنِي كَمَا تُرِيقُ مُنْزِلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٨-٢٩] ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَالِكِ وَالْآتَمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٣٠﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَنَا مَقْرِبِينَ ﴿٣١﴾ وَإِنَّا لَإِكْرٰهًا لِّسٰغِلِيۡنَ ﴾ [الزخرف: ١٢-١٤]، وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه كما سيأتى فى سورة الزخرف إن شاء الله وبه الثقة وقال أبو القاسم الطبراني^(١) حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوى حدثنا محمد بن أبى بكر المقدسى وحدثنا زكريا بن يحيى الساجى حدثنا محمد بن موسى الحرشى قال حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلالى عن نهشل بن سعيد عن الضحاک من مزاحهم عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أمان أمتى من الغرق إذا ركبوا فى السفن أن يقولوا بسم الله الملك ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَالسَّمٰوٰتُ مَطْوِيٰتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَمَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبَهَا ومُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وقوله ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين فذكر أنه غفور رحيم كقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعَقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المراف: ١٦٧] وقال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْرَبٍ لِّنَّاسٍ عَلَىٰ ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المرعد: ٦] إلى غير ذلك من الآيات التى يقرن فيها انتقامه ورحمته وقوله: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ أى السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذى قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رؤوس الجبال وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً وقيل بشمانين ميلاً، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته وحرابته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَّا طَٰغَا أَلْمَاءِ حَمَلْنَاكَ فِي الْبَابِ لِنَجْعَلَهَا لَكَ تَذْكِرَةً وَبِهَا أُذُنٌ رَّعِيَّةٌ ﴾ [الحاقة: ١١-١٢] وقال تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَاكَ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَرْجِ وَدُسِّرَ تَجْرِي بِأَيْمَانِنَا جِرَاءَ لَيْلٍ كَانَ كَبِيرٌ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا مَاءً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴾ [الفر: ١٣-١٥] .

وقوله: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾، هذا هو الابن الرابع واسمه يام وكان كافراً دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يفرق مثل ما يفرق الكافرون ﴿ قَالَ سَتَأوى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ وقيل إنه اتخذ له مركباً من زجاج وهذا من

(١) ضعيف جداً: المعجم الكبير (١٢/١٢٤) برقم (١٢٦٦١). قال الهيثمي فى المجمع (١٠/١٣٢): رواه الطبراني فى الأوسط والكبير، وفيه نهشل بن سعيد، وهو متروك.

الإسرائيليات والله أعلم بصحته، والذي نص عليه القرآن أنه قال: ﴿سَتَّارِي لَكَ جَبَلٍ يَعْصِفُ مِنْكَ الْمَاءَ﴾ اعتقد بجعله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أى ليس شىء يعصم اليوم من أمر الله، وقيل إن عاصما بمعنى معصوم كما يقال طاعم وكاس بمعنى مطعموم ومكسو ﴿وَتَالِ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكِ وَنَسْمَاةَ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفِيصَ الْأَمْرِ وَأَسْتَوْتَ عَلَى الْجُبُودِيِّ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿وَفِيصَ الْمَاءِ﴾ أى شرع فى النقص ﴿وَفِيصَ الْأَمْرِ﴾ أى فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله ولم يبق منهم ديار ﴿وَأَسْتَوْتَ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى الْجُبُودِيِّ﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة تشامت الجبال يومئذ من الغرق وتطاوت وتواضع هو لله عز وجل فلم يغرق وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام وقال قتادة: استوت عليه شهرا حتى نزلوا منها، قال قتادة: وقد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رمادا.

وقال الضحاک: الجودي جبل بالموصل وقال بعضهم: هو الطور، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا عمرو بن رافع حدثنا محمد بن عبيد عن توبة بن سالم ويقال أبو سالم قال: رأيت زر بن حبیش يصلى فى الزاوية حين يدخل من أبواب كندة على يمينك فسألته إنك لكثير الصلاة ههنا يوم الجمعة قال بلغنى أن سفينة نوح أرست من هاهنا. وقال علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلا معهم أهلهم وإنهم كانوا فى السفينة مائة وخمسين يوما وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما ثم وجهها الله إلى الجودي فاستقرت عليه فبعث نوح الغراب ليأتيه بخير الأرض فذهب فوق على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودي فابتنى قرية، وسماها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبليلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها اللسان العربى، فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم. وقال كعب الأحبار: إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودي، وقال قتادة وغيره: ركبوا فى عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوما واستقرت بهم على الجودي شهرا وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم، وقد ورد نحو هذا فى حديث مرفوع رواه ابن جرير^(١) وأنهم صاموا يومهم ذلك والله أعلم.

وقال الإمام أحمد^(٢) حدثنا أبو جعفر حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن

(١) ضعيف: تفسير ابن جرير (٤٧/١٢)، فيه عثمان بن مطر، وهو ضعيف.

(٢) ضعيف بهذا السياق: المسند (٨٥٠٠).

عبد الله عن شيبيل عن أبي هريرة قال: مر النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال «ما هذا من الصوم؟» قالوا هذا اليوم الذي نجى الله موسى وبنى إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل. فقال النبي ﷺ: «أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم» فصام وقال لأصحابه: «من كان أصبح منكم صائماً فليتم صومه، ومن كان أصاب من غذاء أهله فليتم بقية يومه» وهذا حديث غريب من هذا الوجه ولبعضه شاهد في الصحيح، وقوله: ﴿وَقِيلَ بئَمَا لَقَّوْهُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أى هلاكاً وخساراً لهم وبعثاً من رحمة الله فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير^(١) والحبر أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث موسى بن يعقوب الزمعي عن فائد مولى عبيد الله بن أبي رافع أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النبي ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحدًا لرحم أم الصبي» قال رسول الله ﷺ: «كان نوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر فكيف تجري؟ قال سوف تعلمون فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبته رفعته بيديها فغرقا، فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم أم الصبي» وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد روى عن كعب الأخبار ومجاهد بن جبر قصة هذا الصبي وأمه بنحو من هذا.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ قَالَ يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّخِذْ لِيَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْشَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

هذا سؤال استعمال وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي﴾ أى وقد وعدتني بنجاة أهلى ووعدك الحق الذى لا يخلف فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين ﴿قَالَ يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أى الذين وعدت إنجاءهم لأنى إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: ﴿وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْنَا الْقَوْلَ مِنْهُمْ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالفرق لكفره ومخالفته أباه نوحاً عليه السلام، وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه وإنما كان ابن زنية، ويحكى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد والحسن وعبيد بن عمير وأبى جعفر الباقر وابن جرير، واحتج بعضهم بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وبقوله: ﴿فَعَسَىٰ أَعْتَمِدُكُمْ﴾ [التحریم: ١٠] فمن قاله الحسن البصرى احتج بهاتين الآيتين وبعضهم

(١) تفسير الطبري (٣٥/١٢)، وابن أبي حاتم (١٠٨٤٨/٦). قال الهيثمي في المجمع (٢٠٠/٨): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه موسى بن يعقوب الزمعي وثقه ابن معين وغيره، ووضعه ابن المديني وبقية رجاله ثقات.

يقول ابن امرأته وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن أو أراد أنه نسب إليه مجازًا لكونه كان زيبًا عنده فالله أعلم .

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط ^(١) قال: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أى الذين وعدتكم نجاتهم، وقول ابن عباس فى هذا هو الحق الذى لا محيد عنه فإن الله سبحانه أغير من أن يُمكن من امرأة نبي هذه الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُوا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَبْرٌ لَكُلِّ امْرِئٍ بِمَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَوْاَهُ بِالسَّيْئَةِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١-١٥] .

وقال عبد الرزاق ^(٢) أخبرنا معمر عن قتادة وغيره عن عكرمة عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه فى العمل والنية قال عكرمة فى بعض الحروف إنه عمل عملا غير صالح، والخيانة تكون على غير باب، وقد ورد فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ بذلك فقال الإمام أحمد ^(٣) حدثنا يزيد بن هارون ثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾ وسمعتة يقول: ﴿يَبِيدَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] ولا يبالي ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال أحمد أيضا ^(٤) ثنا وكيع ثنا هارون النحوى عن ثابت البنانى عن شهر بن حوشب عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قرأها ﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾ أعاده أحمد أيضا فى مسنده، أم سلمة هى أم المؤمنين والظاهر والله أعلم أنها أسماء بنت يزيد فإنها تكنى بذلك أيضا. وقال عبد الرزاق أيضا ^(٥) أنا الثورى وابن عيينة عن موسى بن أبى عائشة عن سليمان بن قتة قال سمعت ابن عباس سئل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله: ﴿فَمَأْتَاهُمَا﴾ [التحریم: ١٠] قال: أما إنه لم يكن بالزنا ولكن كانت هذه تخبير الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل على الأضياف ثم قرأ ﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾ قال ابن عيينة وأخبرنى عمار الدهنى أنه سأل سعيد بن جبیر عن ذلك فقال: كان ابن نوح، إن الله لا يكذب .

قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ [هود: ٤٢] قال وقال بعض العلماء: ما فجرت امرأة نبي قط . وكذا روى عن مجاهد أيضا وعكرمة والضحاك وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج وهو اختيار أبى جعفر بن جرير وهو الصواب الذى لا شك فيه .

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنَمَتُّهُنَّ مِنْ يَمِينِهِمْ وَمِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرسى السفينة على الجودى من السلام عليه وعلى من

(١) صحيح: تفسير الطبري (٥١/١٢).

(٢) صحيح: أخرجه ابن جرير (٥١/١٢)، من طريق عبد الرزاق.

(٣) صحيح: المسند (٢٧٠٢٢). (٤) صحيح: المسند (٢٥٩٧٩).

(٥) صحيح: تفسير عبد الرزاق (٣١٠/٢)، ومن طريقه ابن جرير فى تفسيره (٥١/١٢).

ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ولهذا قال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ يَدْرَارًا﴾ .

وفي الحديث «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا ورزقه من حيث لا يحتسب»^(١).

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾
 إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوهُ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ مِنْ
 دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٩﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ
 بِعَاصِمَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا للنبهم ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أى بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أى بمجرد قولك اتركوهم نتركهم ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل فى عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوهُ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يقول: إني برىء من جميع الأنداد والأصنام ﴿فَكَيْدُونِي جَمِيعًا﴾ أى أنتم وآلهتكم إن كانت حقًا ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أى طرفه عين وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِعَاصِمَتِهَا﴾ أى تحت قهره وسلطانه وهو الحاكم العادل الذى لا يجور فى حكمه فإنه على صراط مستقيم . قال الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو عن أئف بن عبد الكلاعى أنه قال فى قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِعَاصِمَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال: فى أخذ بنواصى عباده فىلقن المؤمن حتى يكون له إليه من الوالد لولده ويقال للكافر: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر بل هى جماد لا تسمع ولا تبصر ولا توالى ولا تعادى وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له الذى بيده الملك وله التصرف وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه فلا إله إلا هو ولا رب سواه .



(١) ضعيف: أبو داود (١٥١٨)، ابن ماجه (٣٨١٩)، من حديث عبد الله بن عباس .
 فى إسناده الحكم بن مصعب مجهول .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَسَخَّلْتُ رَبِّيٰ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّيٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٩﴾ وَتِلْكَ ءَعَادٌ جَمَعُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُۥ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٠﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ءَلَا إِنَّ ءَعَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ءَلَا بَعْدًا لِّعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾

يقول لهم هود: فإن تولوا عما جئناكم به من عبادة الله ربيكم وحده لا شريك له فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغى إياكم رسالة الله التي بعثني بها ﴿وَسَخَّلْتُ رَبِّيٰ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ولا يبالي بكم فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم ﴿إِنَّ رَبِّيٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أى شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم ونجى هوداً وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه ﴿وَتِلْكَ ءَعَادٌ جَمَعُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها وعصوا رسل الله وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء لأنه لا فرق بين أحد منهم فى وجوب الإيمان به فعاد كفروا بهود فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد واتبعوا أمر كل جبار عنيد، فلهذا أتبعوا فى الدنيا لعنة من الله ومن العباد المؤمنين كلما ذكروا وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿ءَلَا إِنَّ ءَعَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ الآية قال السدى: ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه.

﴿وَإِلَّا تَتُودَ ءَآخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورُ ءَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِۦ وَإِنَّ رَبِّيٰ قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

يقوله تعالى: ولقد أرسلنا إلىٰ نُؤودَ، وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عاد فبعث الله منهم ﴿ءَآخَاهُمْ صَالِحًا﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده ولهذا قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أى ابتداء خلقكم منها، خلق منها أبائكم آدم ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى جعلكم عمارة تعمرونها وتستغلونها ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِۦ﴾ فيما تستقبلونه ﴿إِنَّ رَبِّيٰ قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّيٰ فَإِنِّيٰ قَرِيبٌ مُّجِيبٌ أُمِيبٌ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتْنَهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا دَعَّوْنَا إِلَيْهِۦ مُرِيبٍ ﴿٦١﴾ قَالَ يَنْقُورُ ءَأَرَىٰ بَشَرًا مِّنْ دُونِ رَبِّيٰ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّيٰ وَءَاتَنِي مِنهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَصْرِفُنِي مِّنْ أَلَيْهِۦ إِنَّ عَصِيْبُهُۥ مَا زَيْدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿٦٢﴾﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان من الجهل والعناد فى قولهم ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ أى كنا نرجوك فى عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴿أَتْنَهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا دَعَّوْنَا إِلَيْهِۦ مُرِيبٍ﴾ أى شك كثير ﴿قَالَ يَنْقُورُ ءَأَرَىٰ بَشَرًا مِّنْ دُونِ رَبِّيٰ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّيٰ﴾ فيما أرسلنى به إليكم على يقين وبرهان ﴿وَءَاتَنِي مِنهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَصْرِفُنِي مِّنْ أَلَيْهِۦ إِنَّ عَصِيْبُهُۥ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتمونى ولما زدتمونى ﴿غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ أى خسارة.

﴿وَيَقْوَرُ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءِ
فِيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٠﴾ فَمَعَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّوهَا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ
مَكْذُوبٍ ﴿١١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٢﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿١٣﴾
كَأَن لَّمْ يَفْتَنُوا فِيهَا آلَا إِنَّا نَعُودُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِثَمُودَ ﴿١٤﴾﴾

تقدم الكلام عليها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته فله الحمد والمنة .

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلِّمْ فَلِمَ لَيْتَ أَنْ جَاءَهُ يَعْجَلُ خَبِيرٌ ﴿١٥﴾
فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَوِيلُ إِلَيْهِمْ وَكَرِهَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْرٍ
لُوطٍ ﴿١٦﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿١٧﴾ قَالَتْ يَبْئُوتَنِي أَخْلُفٌ
وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ
وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾

يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ وهم الملائكة ﴿إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى﴾ قيل تبشره بإسحاق وقيل بهلاك
قوم لوط ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى مُبْعِدِينَ فِي قَوْرِ لُوطٍ﴾ [هود:
١٧٤] ﴿قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلِّمْ﴾ أي عليكم قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به لأن الرفع يدل على
الثبوت والدوام ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَهُ يَعْجَلُ خَبِيرٌ﴾ أي ذهب سريعاً فاتاهم بالضيافة وهو عجل فتى البقر،
حينئذ: مشوى على الرضف وهى الحجارة المحممة. هذا معنى ما روى عن ابن عباس وقتادة وغير
واحد كما قال فى الآية الأخرى ﴿فَرَأَى لِكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَهُ يَعْجَلُ سَيِّئِينَ فَفَرَّهُمْ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات:
٢٦-٢٧] وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَوِيلُ إِلَيْهِمْ
نَكَرَهُمْ﴾ تنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا
يأكلونه فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً﴾ قال السدى: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشى فى صور رجال شبان حتى نزلوا
على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم أجلهم ﴿فَرَأَى لِكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَهُ يَعْجَلُ سَيِّئِينَ﴾ [الذاريات: ٢٦] فذبحه ثم شواه
فى الرضف وأتاهم به فقدم معهم وقامت سارة تخدمهم فذلك حين يقول - وامرأته قائمة وهو جالس -
فى قراءة ابن مسعود ﴿فَلَمَّا قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاما
إلا بشمن، قال فإن لهذا ثمنا، قالوا: وما ثمنه؟ قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره
فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَوِيلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ﴾ يقول
فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت إليه سارة أنه قد أكرمهم وقامت هى
تخدمهم ضحكت وقالت: عجبا لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا نصر بن على حدثنا نوح بن قيس عن عثمان بن
محسن فى ضيف إبراهيم قال كانوا أربعة: جبريل وميكائيل وإسرافيل ورفائيل. قال نوح بن قيس

فرغم عون بن أبي شداد أنه لما دخلوا على إبراهيم فقرب إليهم العجل مسح جبريل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل في الدار، وقوله تعالى إخبارًا عن الملائكة: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ أي قالوا لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم، فضحكت سارة استبشارًا بهلاكهم لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم وعنادهم فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس، وقال قتادة ضحكت وعجبت أن قوما يأتيهم العذاب وهم في غفلة، وقوله: ﴿وَمِن دُونِ ذَلِكَ إِسْحَاقُ يَعْقُوبُ﴾ قال العوفي عن ابن عباس فضحكت أي حاضت، وقول محمد بن قيس: إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط.

وقول الكلبي: إنها إنما ضحكت لما رأت من الروح بإبراهيم ضعيفان جدًا وإن كان ابن جرير قد رواهما بسنده إليهما فلا يلتفت إلى ذلك [والله] أعلم. وقال وهب بن منبه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق وهذا مخالف لهذا السياق فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن دُونِ ذَلِكَ إِسْحَاقُ يَعْقُوبُ﴾ أي بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل فإن يعقوب ولد إسحاق كما قال في آية البقرة ﴿إِنَّمَا كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِسَيِّدِهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِي قَالُوا نَبُذُ إِلَهَكَ وَمَا رَبُّكَ إِلَّا إِلَهُنَا وَمَا نَسْتَعِيبُ إِلَّا مَا رَجَعْنَا إِلَيْهَا وَإِسْحَاقُ إِلَهًا وَجَدًا وَمَنْحُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ومن ههنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون إسحاق لأنه وقعت البشارة به وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ووعد الله حق لا خلف فيه فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه والله الحمد ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ الآية حكى قولها في هذه الآية كما حكى فعلها في الآية الأخرى فإنها ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ وفي الذاريات ﴿فَأَنْبَأَتْ آمْرَأَتُهُ فِي صَرَخٍ فَسَكَتَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩] كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب ﴿قَالُوا أَنْتَجِدِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي قالت الملائكة لها لا تعجبي من أمر الله فإنه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون. فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزًا عقيما وبملك شيخًا كبيرًا فإن الله على ما يشاء قدير ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّكُمْ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود ممجد في صفاته وذاته، ولهذا ثبت في الصحيحين^(١) أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

﴿قَلَمًا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْدِلَاتًا فِي قَوْرِ لُوطٍ ۗ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَعَلِيمٌ ۗ أَوَدَّ مُنِيبٌ ۗ يَأْتِيهِمْ أَعْرَاضٌ عَنِ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ مَاتِيهِمْ عَذَابٌ عَيْرٌ مَّرْدُورٌ ۗ﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروح وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية

(١) البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٧).

قال : لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ [العنكبوت : ٣١] قال لهم : أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن؟ قالوا : لا ، قال : أتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا : لا ، قال ثلاثون؟ قالوا : لا ، حتى بلغ خمسة قالوا : لا ، قال : أرايتكم إن كان فيها رجل مسلم واحد أتهلكونها؟ قالوا : لا ، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك : ﴿ إِنَّكَ فِيهَا لَوْطٌ قَالَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ ﴾ الآية [العنكبوت : ٣٢] . فسكت عنهم واطمأنت نفسه ، وقال قتادة وغيره قريباً من هذا زاد ابن إسحاق أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا : لا ، قال : فإن كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب قالوا : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ﴾ الآية [العنكبوت : ٣٢] ، وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوْهٌ مُنِيبٌ ﴾ مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة ، وقد تقدم تفسيرها ، وقوله تعالى : ﴿ يَكْفُرُ بِهِمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبُّكَ ﴾ الآية ، أى إنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذى لا يرد عن القوم المجرمين .

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَةً بِهِمْ وُصِّفَ أَنَّهُمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۖ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوِرُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۖ﴾ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حقي وإنك لنعظم ما نريد ﴿

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة فانطلقوا من عنده فاتوا لوطاً عليه السلام وهو على ما قيل فى أرض له وقيل فى منزله ووردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله وله الحكمة والحجة البالغة فسأه شأنهم وضافت نفسه بسبيهم وخشى إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : شديد بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك . وذكر قتادة أنهم أتوه وهو فى أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم فانطلق أمامهم وقال لهم فى أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه : إنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء . ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات ، قال قتادة وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك .

وقال السدى : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ولقوا بنت لوط تستقى فقالوا يا جارية هل من منزل؟ فقالت مكانكم حتى آتيكم وفرقت عليهم من قومها فأتت أباهم فقالت يا أبتاه أدركت فينا على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحهم وكان قومه نهوه أن يضيف رجلاً فقالوا خل عنا فلنضيف الرجال فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاءوا يهرعون إليه وقوله : ﴿ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أى يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك وقوله : ﴿ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى لم يزل هذا من سجيبتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال .

وقوله : ﴿ قَالَ يَنْفَوِرُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ يرشدهم إلى نسايتهم فإن النبى للامة بمنزلة الوالد

فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿لَتَتَوَنَّأَنَّ الَّذِينَ مِنَ الدُّنْيَا وَتَذُوقُونَ مَا خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].
وقوله في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا أَوْلَمْ نُنهَك عَنِ الْمَلَائِكَةِ﴾ [الحجر: ٧٠] أى ألم ننهك عن ضيافة الرجال ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بِنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ فَعِيلِينَ لَمَتَرَكَ إِيَّاهُمْ لَيْ سَكْرَتِهِمْ بِمَهُونٍ﴾ [الحجر: ٧١-٧٢] وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿هَؤُلَاءِ بِنَاتٍ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال مجاهد لم يكن بناته ولكن كن من أمته وكل نبي أبو أمته وكذا روى عن قتادة وغير واحد.

وقال ابن جريج: أمرهم أن يتزوجوا النساء ولم يعرض عليهم سفاحاً، وقال سعيد بن جبیر: يعنى نساءهم من بناته وهو أب لهم ويقال فى بعض القراءات «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم» وكذا روى عن الربيع بن أنس وقتادة والسدى ومحمد بن إسحاق وغيرهم وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُنُوا فِي ضَلَابِئِهِ﴾ أى اقبلوا ما أمركم به من الاعتصام على نساتكم ﴿أَلَيْسَ يَنْكُرُ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أى فيه خير يقبل ما أمره به ويترك ما نهاه عنه ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَيٍّ﴾ أى إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتبهن ﴿وَأِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ أى ليس لنا غرض إلا فى الذكور وأنت تعلم ذلك فأى حاجة فى تكرار القول علينا فى ذلك؟ قال السدى ﴿وَأِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ إنما نريد الرجال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْبَسْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا لَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام إن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ الآية أى كنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسى وعشيرتى، ولهذا ورد فى الحديث من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد - يعنى الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا فى ثروة من قومه» (١) فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليهم وأنهم لا وصول لهم إليه ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ وأمره أن يسرى بأهله من آخر الليل وأن يتبع أدبارهم أى يكون ساقية لأهله ﴿وَلَا يَلْبَسْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أى إذا سمعت ما نزل بهم ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة ولكن استمروا ذاهبين ﴿إِلَّا أَمْرًا لَّكَ﴾ قال الأكثرون هو استثناء من المثبت وهو قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ تقديره ﴿إِلَّا أَمْرًا لَّكَ﴾ وكذلك قرأها ابن مسعود، ونصب هؤلاء أمرتك لأنه من مثبت فوجب نصبه عندهم، وقال آخرون من القراء والنحاة هو استثناء من قوله ﴿وَلَا يَلْبَسْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا لَّكَ﴾ فجزوا الرفع والنصب.

وذكر هؤلاء أنها خرجت معهم وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت: واقوماه فجاءها حجر من السماء فقتلها ثم قربوا له هلاك قومه تشييراً له لأنه قال لهم أهلكوهم الساعة فقالوا ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ

(١) صحيح: أخرجه أحمد فى مسنده، والترمذى (٣١١٦)، والجزء الأول منه أخرجه البخارى (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١)، من حديث أبى هريرة.

أَلَيْسَ الْأَشْجُعُ بِقَرِيبٍ ﴿٣٧﴾ هذا وقوم لوط وقوف على الباب عكوف قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه وهم لا يقبلون منه بل يتوعدونه ويتهددونه فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُكُرِي﴾ [القمر: ٣٧-٣٨].

وقال معمر بن قنادة عن حذيفة بن اليمان قال: كان إبراهيم عليه السلام يأتي قوم لوط فيقول أنهاكم الله أن تعرضوا لعقوبته فلم يطيعوه حتى إذا بلغ الكتاب أجله انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل في أرض له فدعاهم إلى الضيافة فقالوا إنا ضيوفك الليلة وكان الله قد عهد إلى جبريل ألا يعذبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة ذكر ما يعمل قومه من الشر فمشى معهم ساعة ثم التفت إليهم فقال أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض شرًا منهم أين أذهب بكم؟ إلى قومي وهم أشر خلق الله، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال احفظوها هذه واحدة ثم مشى معهم ساعة فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم قال أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أشر منهم إن قومي أشر خلق الله فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال احفظوها هاتان اثنتان، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال: إن قومي أشر خلق الله أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شرًا منهم.

فقال جبريل للملائكة احفظوا هذه ثلاث قد حق العذاب فلما دخلوا ذهب عجزه عجوزه السوء فصعدت فلوحت بثوبها فأتاها الفساق يهرعون سراعا قالوا ما عندك؟ قالت ضيف لوط قوما ما رأيت قط أحسن وجوهاً منهم ولا أطيب ريحا منهم فهرعوا يسارعون إلى الباب فعالجهم لوط على الباب فدافعوه طويلا وهو داخل وهم خارج يناشدهم الله ويقول: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] فقام الملك فلز بالباب - يقول فسده - واستأذن جبريل في عقوبتهم فأذن الله له فقام في الصورة التي يكون فيها في السماء، فنشر جناحه - ولجبريل جناحان - وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا أجلى الجبين ورأسه حبك حبك مثل المرجان وهو اللؤلؤ كأنه الثلج ورجلاه إلى الخضرة فقال: يا لوط ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ امض يا لوط عن الباب ودعني وإياهم، فتنحى لوط عن الباب فخرج إليهم فنشر جناحه فضرب به وجوههم ضربة شديداً فصاروا عميا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم، ثم أمر لوط فاحتمل بأهله في ليلته قال: ﴿فَأَنزِلْنَا بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ النَّارِ﴾ وروى عن محمد بن كعب وقتادة والسدي نحو هذا.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سِافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُورٍ ﴿٣٨﴾ مُسَوِّمَةً ﴿٣٩﴾ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا﴾ وهي سدوم ﴿سِافِلَهَا﴾ كقوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَفَجَّرْنَا مَاءَ غَشْنٍ﴾ [النجم: ٥٣-٥٤] أي أمطرنا عليها حجارة من سجيل

وهي بالفارسية حجارة من طين قاله ابن عباس وغيره وقال بعضهم أى من سنك وهو الحجر وكل وهو الطين وقد قال فى الآية الأخرى ﴿حِجَارَةٌ يَنْزِلُ بِهَا نَارٌ﴾ [النذريات: ٣٣] أى مستحجرة قوية شديدة، وقال بعضهم مشوية، وقال البخارى ^(١) سجيل: الشديد الكبير، سجيل وسجين اللام والنون أختان، وقال تميم بن مقبل:

وَوَجَلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً ضَرْبًا تَوَاصَتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سَجِينَا

وقوله: ﴿مَنْشُورٌ﴾ قال بعضهم: منضودة فى السماء أى معدة لذلك وقال آخرون: ﴿مَنْشُورٌ﴾ أى يتبع بعضها بعضاً فى نزولها عليهم وقوله: ﴿سُورَةٌ﴾ أى معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه وقال قتادة وعكرمة: ﴿سُورَةٌ﴾ مطوقة بها نضح من حمرة وذكروا أنها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين فى القرى مما حولها فبينما أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره فتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد.

وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفأهم، وكان حملهم على حوافى جناحه الأيمن قال ولما قلبها كان أول ما سقط منها شذانها.

وقال قتادة: بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى ثم ألوى بها إلى جو السماء حتى سمع أهل السماء ضواغى كلابهم ثم دمر بعضها على بعض ثم أتبع شذاذ القوم صخرًا قال وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى فى كل قرية مائة ألف وفى رواية ثلاث قرى الكبرى منها سدوم، قال وبلغنا أن إبراهيم عليه السلام كان يشرف على سدوم ويقول: سدوم يوم مالك وفى رواية عن قتادة وغيره: وبلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف بها أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها فضمها فى جناحه فحوها وطواها فى جوف جناحه ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب وكانوا أربعة آلاف ألف ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة ودمدم بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها ثم أتبعها حجارة من سجيل.

وقال محمد بن كعب القرظى: كانت قرى قوم لوط خمس قريات سدوم وهى العظمى وصعبة وصعوة عثرة ودوما احتملها جبريل بجناحه ثم صعد بها حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نايحة كلابها وأصوات دجاجها ثم كفأها على وجهها ثم أتبعها الله بالحجارة، يقول الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِقَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً يَنْزِلُ بِهَا نَارٌ﴾ فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات، وقال السدى: لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم فذلك قوله: ﴿وَأَلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْرَى﴾ [النجم: ٥٣] ومن لم يمت حين سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة ومن كان منهم شاذاً فى الأرض يتبعهم فى القرى فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله فذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أى فى القرى حجارة من سجيل هكذا قال السدى.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أى وما هذه النعمة ممن تشبه بهم فى ظلمهم ببعيد عنه، وقد ورد فى الحديث المروى فى السنن عن ابن عباس مرفوعاً «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» (١).

وذهب الإمام الشافعى فى قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللانط يقتل سواء كان محصناً أو غير محصن عملاً بهذا الحديث، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنه يلقى من شاطئ ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾

يقول تعالى ولقد أرسلنا إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من بلاد معان. فى بلد يعرف بهم يقال لها مدين فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً، ولهذا قال: ﴿أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وينهاهم عن التطفيف فى المكيال والميزان ﴿إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾ أى فى معيشتكم ورزقكم وإنى أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾ أى فى الدار الآخرة.

﴿وَيَقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٠٩﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط أخذين ومعطين ونهاهم عن العيث فى الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق، وقوله: ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: رزق الله خير لكم وقال الحسن رزق الله خير لكم من بخسكم الناس، وقال الربيع بن أنس وصية الله خير لكم.

وقال مجاهد: طاعة الله وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الهلاك فى العذاب والبقية فى الرحمة، وقال أبو جعفر بن جرير ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس وقال وقد روى هذا عن ابن عباس قلت ويشبه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْرُ وَالْأَلْبُيُّ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْرِ﴾ الآية [المائدة: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أى بربيق ولا حفيظ أى افعلوا ذلك لله عز وجل لا تفعلوه ليراكم الناس بل لله عز وجل.

﴿قَالُوا يَنْشَعِيبُ أَصْلُوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيبُ الرَّشِيدُ ﴿١١٠﴾﴾

يقولون له على سبيل التهكم قبهم الله ﴿أَصْلُوتُكَ﴾ قال الأعمش أى قراءتك ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا

الحزب

٢٤

(١) صحيح: أبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، وأحمد (١٧٢٧).

يَعْبُدُ آبَاؤَنَا ﴿١﴾ أى الأوثان والأصنام ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ فترك التطفيف عن قولك وهى أموالنا نفعل فيها ما نريد، قال الحسن فى قوله: ﴿أَمْوَالِنَا تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أى والله إن صلته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، وقال الشورى فى قوله: ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ يعنون الزكاة وقولهم: ﴿إِنَّا لَأَنْتَ الْحَلِيلُ الرَّشِيدُ﴾ قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وابن أسلم وابن جرير يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء بقبحهم الله ولعنهم عن رحمته وقد فعل .

﴿قَالَ يَنْفُورُ آرَيْشَمُ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ كُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ يقول لهم ﴿آرَيْشَمُ﴾ يا قوم ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي﴾ أى على بصيرة فيما أَدْعُو إليه ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل أراد النبوة وقيل أراد الرزق الحلال ويحتمل الأمرين، وقال الشورى ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ كُمْ عَنْهُ﴾ أى لا أنهاكم عن شئ وأخالف أنا فى السر فأفعله خفية عنكم كما قال قتادة فى قوله ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ كُمْ عَنْهُ﴾ يقول: لم أكن لأنهاكم عن أمر وأرتكبه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أى فيما أمركم وأنهاكم إنما مرادى إصلاحكم جهدى وطاقتى ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أى فى إصابة الحق فيما أريد ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فى جميع أمورى ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى أرجع قاله مجاهد وغيره، قال الإمام أحمد: ^(١) حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو قزعة سويد بن حجير الباهلى عن حكيم بن معاوية عن أبيه أن أخاه مالكاً: قال يا معاوية إن محمداً أخذ جيرانى فانطلق إليه فإنه قد عرفك وكلمك فانطلقت معه فقال: دع لى جيرانى فقد كانوا أسلموا فأعرض عنه فقام متلعطاً فقال: أما والله لئن فعلت إن الناس يزعمون أنك تأمر بالأمر وتخالف إلى غيره وجعلت أجره وهو يتكلم فقال رسول الله ﷺ: «ما تقول؟» فقال: إنك والله لئن فعلت ذلك إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره. قال: فقال «أو قد قالوها - أو قائلهم - ولئن فعلت ذلك ما ذاك إلا على وما عليهم من ذلك من شئ أرسلوا له جيرانه» .

وقال أحمد أيضاً: ^(٢) حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: أخذ النهي ﷺ ناساً من قومي فى تهمة فحبسهم فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقال: يا محمد علام تحبس جبريتي؟ فصمت رسول الله ﷺ فقال: إن ناساً يقولون إنك تنهى عن الشئ وتستخلى به فقال النبي ﷺ: «ما يقول؟» قال: فجعلت أعرض بينهما كلاماً مخافة أن يسمعها فيدعو على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبداً فلم يزل رسول الله ﷺ به حتى فهمها فقال: «أو قد قالوها أو قائلها منهم والله لو فعلت لكان عليّ وما كان عليهم خلوا له عن جيرانه» ومن هذا القبيل الحديث الذى رواه الإمام أحمد ^(٣) حدثنا أبو عامر ثنا سليمان بن بلال عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصارى قال سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان قال رسول الله ﷺ قال:

(٢) حسن: المسند (١٩٥١٧).

(١) حسن: المسند (١٩٥١٢).

(٣) صحيح: المسند (١٥٦٢٨)، (٢٣٠٩٥).

«إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدمكم منه» وهذا إسناده صحيح.

وقد أخرج مسلم^(١) بهذا السند حديث «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لى أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل اللهم إنى أسألك من فضلك» ومعناه والله أعلم مهما بلغكم عنى من خير فأنا أولاكم به. ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدمكم منه ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ عَنْتُمْ﴾ وقال قتادة عن عذرة عن الحسن العرنى عن يحيى بن الجزار عن مسروق أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود فقالت تنهى عن الواصلة؟ قال نعم، فقالت: فلعله في بعض نسائك، فقال ما حفظت إذا وصية العبد الصالح ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ عَنْتُمْ﴾.

وقال عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن أبى سليمان الضبى قال: كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهى فيكتب فى آخرها وما كنت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

﴿رَبِّتَقْوِرَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ يقول لهم ﴿رَبِّتَقْوِرَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أى لا تحملنكم عداوتى وبغضى على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النعمة والعذاب.

وقال قتادة ﴿رَبِّتَقْوِرَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ يقول: لا يحملنكم فراقى، وقال السدى عداوتى، على أن تتمادوا فى الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم.

وقال ابن أبى حاتم: ثنا محمد بن عوف الحمصى ثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج ثنا ابن أبى غنية حدثنى عبد الملك بن أبى سليمان عن ابن أبى ليلى الكندى قال: كنت مع مولاي أمسك دابته وقد أحاط الناس بعثمان بن عفان إذ أشرف علينا من داره فقال: ﴿رَبِّتَقْوِرَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ يا قوم لا تقتلونى إنكم إن قتلتمونى كنتم هكذا وشبك بين أصابعه.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ قيل المراد فى الزمان.

قال قتادة: يعنى إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل فى المكان ويحتمل الأمران ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أى: استغفروه من سالف الذنوب ﴿ثُمَّ تُوْبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ لمن تاب وأناب.

﴿قَالُوا يَنْشِئُ مَا نَفَعَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَأَنزَارُكَ إِنَّمَا ضَعِيفًا وَّلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا
أنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿١١﴾ قَالَ يَنْفَوِرَ أَهْلُكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَتَّخِذُوهُ وِرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ
رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢﴾﴾

يقولون ﴿يَنْشِئُ مَا نَفَعَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾ ما نفهم كثيرا من قولك وفي آذاننا قر ومن بيننا وبينك
حجاب ﴿وَأِنَّا لَأَنزَارُكَ إِنَّمَا ضَعِيفًا﴾ قال سعيد بن جبير والثوري وكان ضرير البصر، وقال الثوري كان
يقال له خطيب الأنبياء، قال السدي ﴿وَأِنَّا لَأَنزَارُكَ إِنَّمَا ضَعِيفًا﴾ قال: أنت واحد، وقال أبو روق:
يعنون ذليلا لأن عشيرتك ليسوا على دينك ﴿وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي قومك وعشيرتك لولا معزنتهم
علينا لرجمناك قيل بالحجارة وقيل لسبائك ﴿وَمَا أنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي ليس لك عندنا معزة ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ
أَهْلُكُمْ أَهْرَ عَلَيْنَا﴾ يقول: أنت تركوني لأجل قومي ولا تركوني إعظاما لجناب الرب تبارك
وتعالى أن تتالوا نبيه بمساءة وقد اتخذتم جانب الله ﴿وِرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾ أي نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا
تعظمونه ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيك بها.

﴿وَيَنْفَوِرَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَٰلِمٌ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
كَاذِبٌ وَّارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٣﴾ وَاَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجِّنَا شُعَيْبًا وَّالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
مِّنَّا وَاَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٌ ﴿١٤﴾ كَان لَرَّ يَفْتَوًا فِيهَا أَلَا بَعْدًا
لِمَلِيْنٍ كَمَا بَعْدَتْ سُوءٌ﴾

لما يش نبي الله شعيب من استجابة قومه له قال يا قوم ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ﴾ أي على طريقتكم
وهذا تهديد ووعيد شديد ﴿إِنِّي عَٰلِمٌ﴾ على طريقتي ﴿سَوْفَ تَعْمَلُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي في
الدار الآخرة ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أي مني ومنكم ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ أي انتظروا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾
قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجِّنَا شُعَيْبًا وَّالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَاَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾
وهم قومه: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٌ﴾ وقوله جاثمين أي هامدين لا حراك بهم. وذكر ههنا أنه
أنتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة وفي الشعراء عذاب يوم الظلة وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم
عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ففي الأعراف لما قالوا ﴿لَنُخِطَّكَ يَنْشِئُ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] ناسب أن يذكر هناك الرجفة فرجفت بهم الأرض التي
ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها، وههنا لما أساءوا الأدب في مقاتلتهم على نبيهم ناسب ذكر
الصيحة التي اسكتتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا ﴿فَأَنقَضَتْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] قال ﴿فَأَنقَضَتْ عَلَيْنَا يَوْمَ الظَّلْمِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٨٩]
وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة ولله الحمد والمنة كثيرا دائما، وقوله: ﴿كَان لَرَّ يَفْتَوًا فِيهَا﴾ أي
يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَلِيْنٍ كَمَا بَعْدَتْ سُوءٌ﴾ وكانوا جيرانهم قريبا منهم في الدار
وشبيها بهم في الكفر وقطع الطريق وكانوا عربا شبيهاهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١١١﴾ إِلَيْنَا فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ فَأَنبَغُوا ﴿١١٢﴾ أَمْرًا فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُهُمْ إِلَّا يَبْغُونَ ﴿١١٣﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّأَلُونَ الْمُرُودُ ﴿١١٤﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَّأَلُونَ الْمُرُودُ ﴿١١٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى عليه السلام بآياته ودلالاته الباهرة القاطعة إلى فرعون لعنة الله وهو ملك ديار مصر على أمة القبط وملته ﴿فَأَنبَغُوا أَمْرًا فِرْعَوْنَ﴾ أى منهجه ومسلكه وطريقته فى الغي والضلال ﴿وَمَا أَمْرُهُمْ إِلَّا يَبْغُونَ بِرِشِيدٍ﴾ أى ليس فيه رشد ولا هدى . وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه فى الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها وشربوا من حياض رداها، وله فى ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿فَمَعَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولُ فَأَعْدَتَهُ أَهْلًا وَيَلًا ﴿١١٦﴾ [المزمل: ١٦] وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَغَيَّرُ فَقَادَىٰ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ فَأَعَدَّهُ اللَّهُ كَذَابًا وَآلُوهٗ الْأُولَىٰ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢١١-٢١٦﴾ [التازعات: ٢١١-٢١٦] .

وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّأَلُونَ الْمُرُودُ ﴿١١٤﴾﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفورين فى العذاب يوم المعاد كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَمْلِكُونَ ﴿٣٨﴾ [الأعراف: ٣٨] وقال تعالى إخباراً عن الكفرة أنهم يقولون فى النار: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَانَنَا فَأُصَلِّبُنَا السَّبِيلَ رَبَّنَا إِنَّا نَجْعَلُكَ مِنَّا ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَمِ لَنَا كَبِيرًا ﴿٦٧-٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨] .

وقال الإمام أحمد: ^(١) حدثنا هشيم حدثنا أبو الجهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «امرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار» وقوله: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَّأَلُونَ الْمُرُودُ﴾، أى اتبعناهم زيادة على ما جازيناهم من عذاب النار لعنة فى الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَّأَلُونَ الْمُرُودُ﴾ قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿يَتَسَّأَلُونَ الْمُرُودُ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة وكذا قال الضحاك وقتادة هكذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُصْرُونَ وَأَتَّبِعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُورِينَ﴾ [القصص: ٤١-٤٢] وقال تعالى ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [هافر: ٤٦] .

﴿ذَٰلِكَ مِنَ آيَاتِ الْقُرْآنِ نَقَضُكَ عَلَيْكَ مِنهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا عُتُوًّا وَنُيُوبًا﴾

لما ذكر تعالى خبير هؤلاء الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنَ آيَاتِ الْقُرْآنِ﴾ أى من أخبارهم ﴿نَقَضُكَ عَلَيْكَ مِنهَا قَائِدٌ﴾ أى عامر ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أى هالك دائر ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أى إذ أهلكناهم ﴿وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ أى: أصنامهم وأوثانهم التى كانوا يعبدونها ويدعونها ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أى:

(١) ضعيف: المسند (٧٠٨٧) قال الهيثمي فى المجمع (١١٩/٨): رواه أحمد والبخاري، وفى إسناده أبو الجهم شيخ هشيم بن بشير لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿وَمَا رَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَابِعٍ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أى غير تخسير وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان بتابعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها فهذا أصابهم ما أصابهم وخسروا بهم فى الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾

يقول تعالى وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسنا كذلك نفعل بنظائرهم بأشباههم وأمثالهم ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وفى الصحيحين ^(١) عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **إِنِ اللَّهُ لِيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾**.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿٣٥﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿٣٦﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾

يقول تعالى إن فى إهلاكنا الكافرين ونصرة الأنبياء وإنجاننا المؤمنين ﴿لآيَةً﴾ أى عظة واعتباراً على صدق موعودنا فى الدار الآخرة ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ﴾ [إسراء: ٥١] وقال تعالى ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَكُلُّكُمْ لِنُحْيِيَنَّكُمْ وَالظَّالِمِينَ وَنَحْنُ نَكْتُمُكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَيْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَابِي وَخَافَ وَيَعِيدُ﴾ [إسراء: ١٣-١٤]. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أى أولهم وآخرهم فلا يبقى منهم أحد كقوله: ﴿وَحَشَرْتَهُمْ فَمَنْ تَأْوَدَّ مِنْهُمْ لَحْمًا﴾ [الكهف: ٤٧]

﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أى: يوم عظيم تحضره الملائكة كلهم ويجتمع فيه الرسل جميعهم وتحشر فيه الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطيور والوحوش والدواب ويحكم فيه العادل الذى لا يظلم منقال ذرة ون تك حسنة يضاعفها، وقوله ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أى ما تؤخر إقامة القيامة إلا أنه قد سبقت كلمة الله وقضاؤه وقدره فى وجود أناس معدودين من ذرية آدم وضرب مدة معينة إذا انقضت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم من ذرية آدم أقام الله الساعة ولهذا قال: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أى لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا ينقض منها ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أى يوم يأتى هذا اليوم وهو يوم القيامة لا يتكلم أحد يومئذ إلا بإذن الله كقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالنَّفْسُ سَوَاءً لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] وقال: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ الآية [طه: ١٠٨]. وفى الصحيحين ^(٢) عن رسول الله فى حديث الشفاعة الطويل: «ولا يتكلم يومئذ إلا

الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم» وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أى فمن أهل الجمع شقى ومنهم سعيد كما قال ﴿فَرِيقٌ فِي النَّارِ وَفَرِيقٌ فِي السَّمِيعِ﴾ [الشورى: ٧٠] وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: ثنا موسى بن حيان حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا سليمان أبو سفيان حدثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن عمر قال: لما نزلت ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سألت النبى ﷺ فقلت يا رسول الله: علام نعمل؟ على شىء قد فرغ منه أم على شىء لم يفرغ منه، فقال: «على شىء قد فرغ منه يا عمر وجرت به الأقلام، ولكن كل ميسر لما خلق له» ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٣٦﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٣٧﴾﴾

يقول تعالى ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال ابن عباس الزفير فى الحلق والشهيق فى الصدر أى تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب عياداً بالله من ذلك ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشئ بالدوام أبداً قالت هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك يقولون هو باق ما اختلف الليل والنهار ، وما سمر ابنا سمير وما لألات العفر بأذناها يعنون بذلك كلمة أبداً فحاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال : ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ .

(قُلْتُ) : ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس لأنه لا بد فى عالم الآخرة من سموات وأرض كما قال تعالى ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ [إبراهيم : ٤٨] ولهذا قال الحسن البصرى فى قوله : ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال : تبدل سماء غير هذه السماء وأرض غير هذه الأرض فما دامت تلك السماء وتلك الأرض . وقال ابن أبى حاتم ذكر عن سفیان بن حسين عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس قوله : ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال : لكل جنة سماء وأرض ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما دامت الأرض أرضا والسماء سماء . وقوله ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ كقوله ﴿أَنْتَ أَرْسَلْتَنَا خَلِيلَيْنِ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام : ١٢٨] وقد اختلف المفسرون فى المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزى فى كتابه زاد المسير ، وغيره من علماء التفسير ، ونقل كثيرا منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله فى كتابه واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وأبى سنان ورواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس والحسن أيضا أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبیین والمؤمنين ، حين يشفعون فى أصحاب الكبائر ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط وقال يوما من الدهر لا إله إلا الله كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبى سعيد وأبى هريرة وغيرهم من الصحابة ولا يبقى بعد ذلك فى النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديما وحديثا فى تفسير هذه الآية الكريمة . وقد روى فى تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وأبى هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر وأبى سعيد من الصحابة ، وعن أبى مجلز والشعبى وغيرهما من التابعين ، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الأئمة فى أقوال غريبة وورد حديث غريب فى معجم الطبرانى الكبير عن أبى أمامة صدى بن عجلان الباهلى ولكن سنده ضعيف والله أعلم . وقال قتادة : الله أعلم بشيئه ، وقال السدى هى منسوخة بقوله ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء : ٥٧] .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُودُوا فِي الْبَنَةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاةٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾

يقول تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُودُوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿فِي الْبَنَةِ﴾ أي فما واهم الجنة ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أي ما كثر فيها أبدأ ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى فله المنة عليهم دائماً ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس . وقال الضحاك والحسن البصري هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها وعقب ذلك بقوله ﴿عَطَاةٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ أي غير مقطوع قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد لثلاث يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً أو لبساً أو شيئاً بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع كما بين هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته وأنه بعدله وحكمته عذبهم ولهذا قال ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] كما قال: ﴿لَا يَسْتَلُ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله: ﴿عَطَاةٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ وقد جاء في الصحيحين^(١) «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت، وفي الصحيح^(٢) أيضاً «يقال يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً» .

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَبْدُ هَتُولَاءُ مَا يَبْدُونَ إِلَّا كَمَا يَبْدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُونَ بِنَصِيحَتِهِمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ وَإِنْ كُنَّا لَيُوقِفِينَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

يقول تعالى ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَبْدُ هَتُولَاءُ﴾ المشركون إنه باطل وجهل وضلال فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة . قال سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن مجاهد عن ابن عباس ﴿وَإِنَّا لَمَوْفُونَ بِنَصِيحَتِهِمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ قال ما وعدوا فيه من خير أو شر . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة فلا يغيظك تكذيبهم لك ولا يهدئك ذلك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ .

قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لفضى الله بينهم ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا

(١) البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري .

(٢) مسلم (٢٨٣٧) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة .

مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبَعْتَ رَسُولًا ﴿الإسراء: ١٥﴾ فإنه قد قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزِمَامَا وَاجِلٍ مُّسَمًّى فَاَصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩-١٣٠] ثم أخبر أن الكافرين في شك مما جاءهم به الرسول قوياً فقال: ﴿وَرَأَيْتُمْ لَيْسَ شَكَّيْنَتُهُ مُرْسِبًا﴾.

ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر فقال: ﴿وَإِنَّ كُلَّ لَنَا لَئِيْفَتِهِمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيها صغيرها وكبيرها وفي هذه الآية قراءات كثيرة يرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلَّ لَنَا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢].

﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَسْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان وهو البغى فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء ولا يخفى عليه شيء.

وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تدهنوا وقال العوفي عن ابن عباس: هو الركوب إلى الشرك وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم وقال ابن جرير عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا وهذا القول حسن أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صيغهم ﴿فَتَسْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولى ينقذكم ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُؤْلَنَا مِنْ آيَلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ﴿٣٥﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ قال يعنى الصبح والمغرب وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال الحسن في رواية وقتادة والضحاك وغيرهم هي الصبح والعصر وقال مجاهد: وهي الصبح في أول النهار والظهر والعصر من آخره وكذا قال محمد بن كعب القرظي والضحاك في رواية عنه قوله: ﴿وَرُؤْلَنَا مِنْ آيَلٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم يعنى صلاة العشاء وقال الحسن في رواية ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عنه ﴿وَرُؤْلَنَا مِنْ آيَلٍ﴾ يعنى المغرب والعشاء قال رسول الله ﷺ: «هما زلفتا الليل المغرب والعشاء»^(١) وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك إنها صلاة المغرب والعشاء، وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضاً في قول والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ﴾ يقول إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٢/١٣٠، ١٣١).

الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن^(١) عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله حديثاً نفعني الله بما شاء أن يتفنى منه وإذا حدثني عنه أحد استحلفته فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له» وفي الصحيحين^(٢) عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال: «من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه» وروى الإمام أحمد^(٣) وأبو جعفر ابن جرير من حديث أبي عقيل زهرة بن معبد أنه سمع الحارث مولى عثمان يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا عثمان بماء في إناء أظنه سيكون فيه قدر مد فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا ثم قال: «من توضأ نحو وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما بينه وبين صلاة الصبح ثم صلى العصر غفر له ما كان بينه وبين صلاة الظهر ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر ثم صلى العشاء غفر له ما بينه وبين صلاة المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهن الحسنات يذهبن السيئات» وفي الصحيح^(٤) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أن بياض أحدكم نهرًا غمرًا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: «كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا» وقال مسلم في صحيحه^(٥): حدثنا أبو الطاهر وهارون بن سعيد قالوا: حدثنا ابن وهب عن أبي صخر أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر» وقال الإمام أحمد^(٦) حدثنا الحكم بن نافع حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد أن أبا رهم السلمي كان يحدث أن أبا أيوب الأنصاري حدثه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة» وقال أبو جعفر بن جرير^(٧) حدثنا محمد بن عوف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا أبي عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جعلت الصلوات كفارات ما بينهن فإن الله قال ﴿إِنَّ الْمَسْئَلَةَ يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ﴾».

وقال البخاري^(٨): حدثنا قتيبة بن سعيد ثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله ﴿وَأَقْرِمُ السَّلْوَةَ﴾

(١) حسن: المسند (٤٨)، وأبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٣٠٠٩)، وابن ماجه (١٣٩٥).

(٢) البخاري (١٦٠) (١٦٤)، ومسلم (٢٢٦).

(٣) صحيح: أحمد (٥١٥)، وابن جرير في تفسيره (١٣٢/١٢)، قال المنذري في ترجمته (١٤٧/١) رقم (٥٤٠): رواه أحمد بإسناد حسن.

(٤) البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٥) مسلم (٢٣٣).

(٦) صحيح: المسند (٢٢٩٩٢).

(٧) تفسير الطبري (١٣٣/١٢) في إسناده محمد بن إسماعيل بن عياش لم يسمع من أبيه شيئاً، انظر مجمع الزوائد (٢٩٩/١).

(٨) البخاري برقم (٥٢٦)، (٤٦٨٧).

طَرَفِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴿١﴾ فقال الرجل يا رسول الله ألى هذا؟ قال: «لجميع أمتى كلهم» هكذا رواه في كتاب الصلاة وأخرجه في التفسير عن مسدد عن يزيد بن زريع بنحوه ورواه مسلم وأحمد وأهل السنن^(١) إلا أبا داود من طرق عن أبي عثمان النهدي واسمه عبد الرحمن بن مل به . ورواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير^(٢) وهذا لفظه من طرق عن سماك بن حرب أنه سمع إبراهيم بن يزيد يحدث عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أنى لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك فافعل بى ما شئت فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً فذهب الرجل . فقال عمر: لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال: «ردوه علي» فردوه عليه فقرأ عليه ﴿وَأَوْرَثْنَا مَرْثَتَكَ لَكَ وَالْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكْرَيْنِ﴾ فقال معاذ وفي رواية عمر يا رسول الله أله وحده أم للناس كافة؟ قال: «بل للناس كافة» وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا محمد بن عبيد ثنا أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا من أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذي نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه» قال: قلنا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «غشمه وظلمه ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به فيقبل منه ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث» .

وقال ابن جرير^(٤): حدثنا أبو السائب ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم قال: كان فلان ابن معتب رجلا من الأنصار فقال يا رسول الله دخلت على امرأة فنلت منها ما ينال الرجل من أهله إلا أنى لم أواقعها فلم يدر رسول الله ﷺ ما يجيبه حتى نزلت هذه الآية ﴿وَأَوْرَثْنَا مَرْثَتَكَ لَكَ وَالْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكْرَيْنِ﴾ فدعاه رسول الله ﷺ فقرأها عليه وعن ابن عباس أنه عمرو بن غزية الأنصارى التمار وقال مقاتل هو أبو نفيل عامر بن قيس الأنصارى وذكر الخطيب البغدادي أنه أبو اليسر كعب بن عمرو .

وقال الإمام أحمد^(٥) حدثنا يونس وعفان قالا: حدثنا حماد يعني ابن سلمة عن علي بن زيد قال

(١) مسلم (٢٧٦٣)، والمسند (٣٦٤٥)، (٣٨٤٤)، (٤٠٨٣)، (٤٢٣٨)، والترمذي (٣١١٢)، وابن ماجه (١٣٩٨).

(٢) المسند (٤٢٧٨)، ومسلم (٢٧٦٣)، وأبو داود (٤٤٦٨)، والترمذي (٣١١١)، وابن جرير (١٣٥/١٢).

(٣) المسند (٣٦٦٣)، قال المنذري في الترغيب (٣٤٧/٢): رواه أحمد وغيره من طريق أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد، وقد حسنها بعضهم.

(٤) تفسير الطبري (١٣٥/١٢).

(٥) المسند (٢٢٠٧)، قال الهيثمي في المجمع (٣٨/٧): رواه أحمد، والطبراني في الكبير، ورواه في الأوسط باختصار كثير، وفي إسناده أحمد والكبير على بن زيد وهو سيئ الحفظ ثقة، وبقية رجاله ثقات، وإسناد الأوسط ضعيف.

عنان أنبأنا على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رجلا أتى عمر فقال: امرأة جاءت تباعه فأدخلتها الدولج فأصبحت منها ما دون الجماع، فقال ويحك لعلها مغيبة في سبيل الله؟ قال أجل، قال فانت أبا بكر فسله. قال فأتاه فسأله فقال لعلها مغيبة في سبيل الله؟ فقال مثل قول عمر ثم أتى النبي ﷺ فقال له مثل ذلك قال «فلعلها مغيبة في سبيل الله» ونزل القرآن ﴿وَأَقْرِمِ الْمَسْكُونَةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ لِحَسَنَتِي يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ﴾ إلى آخر الآية، فقال يا رسول الله ألي خاصة أم للناس عامة؟ فضرب يعني عمر صدره بيده وقال لا ولا نعمة حين بل للناس عامة فقال رسول الله ﷺ: «صدق عمر» وروى الإمام أبو جعفر بن جرير^(١) من حديث قيس بن الربيع عن عثمان بن موهب عن موسى بن طلحة عن أبي اليسر كعب بن عمرو الأنصاري قال أتتني امرأة تتباع مني بلدهم تمرًا فقلت إن في البيت تمرًا أطيب وأجود من هذا فدخلت فأهويت إليها فقبلتها فأتيت عمر فسألته فقال اتق الله واستر على نفسك ولا تخبرن أحدًا فلم أصبر حتى أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال «أخلفت رجلا غازيًا في سبيل الله في أهله بمثل هذا» حتى ظننت أني من أهل النار حتى تمنيت أني أسلمت ساعتئذ فأطرق رسول الله ﷺ ساعة فنزل جبريل فقال أين أبو اليسر فجنحت فقرأ علي رسول الله ﷺ ﴿وَأَقْرِمِ الْمَسْكُونَةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ لِحَسَنَتِي يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرِيِّ﴾.

فقال إنسان: يا رسول الله له خاصة أم للناس عامة؟ قال «لنناس عامة» وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني^(٢) حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملي ثنا يوسف بن موسى ثنا جرير عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل أنه كان قاعدًا عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئًا يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها غير أنه لم يجامعها؟ فقال له النبي ﷺ: «توضأ وضوءًا حسنًا ثم قم فصل» فأنزل الله عز وجل هذه الآية يعني قوله: ﴿وَأَقْرِمِ الْمَسْكُونَةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْلًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ فقال معاذ أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: «بل للمسلمين عامة» ورواه ابن جرير من طرق عن عبد الملك بن عمير به. وقال عبد الرزاق أخبرنا محمد بن مسلم عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله ﷺ فاستأذنه لحاجة فأذن له فذهب يطلبها فلم يجدها فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبي ﷺ بالمطر فوجد المرأة جالسة على غدير فدفع في صدرها وجلس بين رجلها فصار ذكره مثل الهدية فقام نادما حتى أتى النبي ﷺ فأخبره بما صنع فقال له: «استغفر ربك وصل أربع ركعات» قال: وتلا عليه ﴿وَأَقْرِمِ الْمَسْكُونَةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْلًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾.

وقال ابن جرير^(٣): حدثني عبد الله بن أحمد بن شويه ثنا إسحاق بن إبراهيم ثنى عمرو بن الحارث حدثني عبد الله بن سالم عن الزبيدي عن سليم بن عامر أنه سمع أبا أمامة يقول إن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أقم في حد الله - مرة أو اثنتين - فأعرض عنه رسول الله ﷺ ثم أقيمت

(١) صحيح: تفسير الطبري (١٢/١٣٧).

(٢) ضعيف: سنن الدارقطني (١/١٣٤) برقم (٤) فيه انقطاع بين عبد الرحمن بن أبي ليلى ومعاذ بن جبل.

(٣) صحيح: تفسير الطبري (١٢/١٣٦).

الصلاة فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة قال: «أين هذا الرجل القائل أقم في حد الله؟» قال: أنا ذا. قال: هل أتممت الوضوء وصليت معنا آنفاً؟ قال: نعم. قال: «فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك فلا تعد» وأنزل الله على رسول الله ﷺ ﴿وَأَقْرِبْ الْمَسَلَةَ طَرَفِي الْتَهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ بِالسَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا عفان ثنا حماد بن سلمة أنبأنا علي بن زيد عن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة فأخذ منها غصناً يابساً فهزه حتى تحات ورقة ثم قال: يا أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا قلت ولم تفعله؟ فقال هكذا فعل رسول الله ﷺ فقال: وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها غصناً يابساً فهزه حتى تحات ورقة فقال: «يا سلمان ألا تسألني: لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله فقال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياها كما يتحات هذا الورق. وقال: ﴿وَأَقْرِبْ الْمَسَلَةَ طَرَفِي الْتَهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ بِالسَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «يا معاذ أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» وقال الإمام أحمد^(٣) حدثنا وكيع ثنا سفيان عن حبيب بن ميمون بن أبي شبيب عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» وقال أحمد^(٤) حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شمر بن عطية عن أشياخه عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أوصني، قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها» قال: قلت: يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: «هي أفضل الحسنات» وقال الحافظ أبو يعلى^(٥) الموصلي حدثنا هذيل بن إبراهيم الجماني حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهري من ولد سعد بن أبي وقاص عن الزهري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نهار إلا طمست ما في صحيفة من السيئات حتى يسكن إلى مثلها من الحسنات» عثمان بن عبد الرحمن يقال له الوقاصي فيه ضعف. وقال الحافظ أبو بكر البزار^(٦) حدثنا بشر بن آدم وزيد بن أوزم قالوا حدثنا الضحاك بن مخلد حدثنا مستور بن عباد عن ثابت عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله ما تركت من حاجة ولا داجة فقال رسول الله ﷺ: «أليس تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قال: بلى. قال «فإن هذا يأتي على ذلك» تفرد به من هذا الوجه مستور.

(١) حسن: المسند (٢٣١٩٥).

(٢) ضعيف: المسند (٢١٤٨٢)، وميمون بن أبي شبيب لم يسمع من معاذ.

(٣) ضعيف: المسند (٢٠٨٤٧)، ميمون بن أبي شبيب لم يسمع من أبي ذر.

(٤) حسن: المسند (٢٠٩٧٦)، انظر السلسلة الصحيحة (٣/٣٦٢).

(٥) ضعيف جداً: مسند أبي يعلى (٦/٣٩٤) برقم (٣٦١١).

قال البيهقي في المجمع (١٠/٨٢): فيه عثمان بن عبد الرحمن الزهري، وهو متروك.

(٦) صحيح: البزار (٤/٣٠٦٧-كشف).

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهَوَّتْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ
أَجْبَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ
الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصَلِحُونَ﴾

يقول تعالى فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور
والمنكرات والفساد في الأرض، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم
يكونوا كثيرًا وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غيرِهِ وفجأة نعمته ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة
أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ﴾ وفى الحديث «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم
يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»^(١) ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ
يَتَهَوَّتْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَجْبَيْنَا مِنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾
أى استمروا على ما هم عليه من المعاصى والمنكرات ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجاهم
العذاب ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة لنفسها ولم يأت قرية
مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ﴾، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ
وَمَتَّ كَلِمَةً رَبِّكَ لِأَمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ
رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ﴾ أى ولا يزال
الختلف بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم، وقال عكرمة: مختلفين
فى الهدى وقال الحسن البصرى: مختلفين فى الرزق يسخر بعضهم بعضًا، والمشهور الصحيح
الأول. وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ﴾ أى إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من
الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبي الأمي خاتم الرسل والأنبياء
فاتبعوه وصدقوه ونصروه ووازره ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة لأنهم الفرقة الناجية كما جاء فى
الحديث المروى فى المسانيد والسنن^(٢) من طرق يشد بعضها بعضًا «إن اليهود افتقرت على إحدى
وسبعين فرقة وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها
فى النار إلا فرقة واحدة، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال «ما أنا عليه وأصحابي» رواه الحاكم فى
مستدرکه^(٣) بهذه الزيادة، وقال عطاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يعنى اليهود والنصارى والمجوس ﴿إِلَّا
مَن رَّجِمَ رَبُّكَ﴾ يعنى الحنيفية وقال قتادة أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم

(١) صحيح: تقدم تحريمه.

(٢) حسن: أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، وأحمد (٢٧٥١٠).

(٣) حسن: تقدم تحريمه.

وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم، وقوله: ﴿وَلَاذِكَّ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن البصرى فى رواية عنه وللأختلاف خلقهم، وقال علي بن أبى طلحة عن ابن عباس: خلقهم فريقين كقوله: ﴿فِيْنَهُمْ شِقْوٌ وَسَوِيْدٌ﴾ وقيل للرحمة خلقهم قال ابن وهب أخبرنى مسلم بن خالد عن ابن أبى نجيع عن طاوس: أن رجلين اختصما إليه فأكثرَا فقال طاوس اختلفتما وأكثرتما فقال أحد الرجلين: لذلك خلقنا فقال طاوس: كذبت فقال أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ تُخَلِّفُونَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَاذِكَّ خَلَقَهُمْ﴾ قال لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة والرحمة كما قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وقيل بل المراد وللرحمة والأختلاف خلقهم كما قال الحسن البصرى فى رواية عنه فى قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ تُخَلِّفُونَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَاذِكَّ خَلَقَهُمْ﴾ قال الناس مختلفون على أديان شتى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فمن رحم ربك غير مختلف قيل له فلذلك خلقهم قال خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره وخلق هؤلاء لرحمته وخلق هؤلاء لعذابه وكذا قال عطاء بن أبى رباح والأعمش، وقال ابن وهب سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ تُخَلِّفُونَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَاذِكَّ خَلَقَهُمْ﴾ قال فريق فى الجنة وفريق فى السعير، وقد اختار هذا القول ابن جرير وأبو عبيد القراء وعن مالك فيما روينا عنه من التفسير ﴿وَلَاذِكَّ خَلَقَهُمْ﴾ قال للرحمة وقال قوم للأختلاف.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقيلين الجن والإنس وله الحجة البالغة والحكمة التامة، وفى الصحيحين^(١) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة: ما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار: أوثرت بالمكبرين والمتجبرين فقال الله عز وجل للجنة: أنتى رحمتى أرحم بك من أشاء وقال للنار أنتى عذابى أنتى انتقم بك ممن أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد؟ حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول قط قط وعزتك .

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

يقول تعالى وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أهمهم وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداء الكافرين . كل هذا مما ثبت به فؤادك يا محمد أى قلبك ليكون لك بمن مفضى من إخوانك من المرسلين أسوة، وقوله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أى هذه السورة قال ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف، وعن الحسن فى رواية عنه وقتادة: فى هذه الدنيا والصحيح فى هذه

(١) البخارى (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦).

السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين جاءك فيها قصص حق ونبا صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتوقر بها المؤمنون .

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٥٦﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أى على طريقتكم ومنهجكم ﴿ إِنَّا عَمِلُونَ ﴾ أى على طريقتنا ومنهجنا ﴿ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴾ أى ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَذَابُ الدَّارِ الْآخِرَةِ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

﴿ وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤفى كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه . فإنه كاف من توكل عليه وأتاب إليه، وقوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى ليس يخفى عليه ما عليه مكذوبك يا محمد بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء فى الدنيا والآخرة وسينصرك وحزبك عليهم فى الدارين، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب عن جعفر بن سليمان عن أبى عمران الجونى عن عبد الله بن رباح عن كعب قال: خاتمة التوراة خاتمة هود .
آخر تفسير سورة هود عليه السلام ولله الحمد والمنة .

